الكلمة الاخيرة

[الكلمة التي اقولها لكل فتاة لا تنظر الى ابعد من صدرها]

الآنسة « ح ... »

لقد تعودت ان اكون صريحاً معك ، وكاد ذلك يساعدني على انتشالك من الحياة التافهة اللاواعية التي كنت تعيشينها . انني لا ارى فيك اليوم ما يشجعني على التلفظ باسمك ، ولا حتى على رسمه احرفاً صماء على هذه الورقة اليابسة ، وقبل ان اوجه اليك كلمتي الاخيرة سأصبر امامك عـــامين من الزمن ، لا لتجتريها كشاة جائعة ، وانما لثقتي من انك لا بد يوماً راجعة الى نفسك .

بالرغم من انني كنت اعرف جميع الشبهات التي كانت تحوم حولك ، وبالرغم من تأكدي من صحة هذه الشبهات ، فقـــد سمحت لنفسي ان لا اعتبرك مسؤولة عن هذا التردي والانحطاط ، وحجتي كانت (ليست مسؤولة عن سلوكها الرخيص ، ما دام المجتمع لم يساعدها على ان ترى سلوكاً أثمن منه) ، وكنت آنئذ شديد الثقة بملاحك ، فعيونك الخضر على ما فيها من الهمود اشعرتني بالارتياح وجبينك اللامع المفعم بالذكاء ملأني املاً ، وكان وجهك بشكله العام ترجمة موثوقة لشيء اشبه بالروح .. وقوربت التعرف عليك والاتصال بك ، فاستسلمت لي بكل قواك ، وكم كانت دهشتـــك ان تسمعي لاول مرة من فتى في عمر الربيع وبكل برودة دم وثقة كلمة « لا » وبشيء من الارتياح الممزوج بالحيرة سألتني « اذن ماذا تريد مني ؟ » . وجلسنا في الزاوية المظلمة من الحانة وشرعت اثرثر على مسمعيـــك « انت فتاة طيبة ، وملاحك تدل على الذكاء والنبل ، وهذا الجسد الذي تتجرين به هو بنظري حياة كاملة ، فجسدك وجسدي وجميع هذه الاجساد الادمية ليست مواد خلقت لتملأ الفراغ بين الجدران المربعة ، ولكنها السلم الذي علينا ان نطل من فوقه على هذه الحياة التي ربما وجدنا فيهـــا وجودنا ، او ما يجيب على اسئلتنا . ان في جسد كل منا روحاً يجب ان يعرفها جيداً » . لقد استجبت لمحاضرتي ، وشعرت ان كلماتي بعضها ينطوي على الحق ، وبعضها على النية الحسنة . وهذا ما شجعني ، فتابعت طريقي الى « روحك » ، اتلمسهـــا برفق ، واهدهدها بحنان وما ان شعرت بالدفء والامان حتى انسابت تتلوى في عروقك ، وتسير مع الدم الى شفتيك فخديك فعينيـــك فجبينك ، وكثيراً ما كانت ترافق دموعك حتى قدميك ، فهل تذكرين ؟ . وعندئذ اخذت تتنكرين لماضيك الاسود ، وتحاولين طمسه عن ناظري . ويهجرني الذكاء لاول مرة تحت « داليتكم » الواطئة ، وفوق بساطك « المفمر » ، وابدأ بسرد واف لكل ما اعرفه عن ماضيك – وكنت اعرف كل شيء – ، فعددت على مسمعيك كل التافهين الذين كنت بكـــل بساطة تستلقين تحت اجسامهم القذرة ، وتغرقين في عواطفهم الكذابة ، والذين كانوا بكل دناءة يمتصون الرحيق عن جسدك ، ليبصقوه خزياً على مسامع الناس ، فيشوهوا سمعتك ، ويسطروا اسمك في قائمة « الموبسات » فكان ... ان بكيت ، وملت بدموعك على صدري ، فبللت بعضاً من يدي ، وبحركة لا شعورية انحنيت فوق دموعك ، ورسمت قبلة بيضاء على جبينك ، قبلة فيها من الحب بقدر ما فيها من الحنان . وكبا مني الفارس لاول مرة ايضاً ، ففلت الزمام من يدي ، واندفع الغرام ناراً على شفتي ، وارتعشت كل كبيرة وصغيرة في جسدي – ليتك لم تبك آنئذ يا ... – فأمسكت بساعة الظلام التي كانت تعتصم بين عينيك – منذ خمسة اعوام كما قلت لي – وابعدتك عن صدري بعنف ، وبحلقت فيك بشدة ، لقد كنت امرأة بكل معنى الكلمة ، كنت اشهى من المعقول واجل من اللازم ، وانحدرت من فوق خديك دمعتان ، سلما على شفتيك ، وقابعا طريقهما الى ناهديك ، وعندما جذبتك بطريقة سادية الى صدري ، وانهلت على شفتيك وعينيك ونهديك قبلاً مجنونة تثاءب لطولها الزمن ، وذاب في لهيبها الوجود ، وامحت امام لذتها كل قيم العالم ، وكل اخلاقه ، وكل دياناته .

وافقت فجأة على غلطتي ، وتذكرت النتائج الطيبة التي وصلت اليها معك ، والتي كانت ثمرة سلوكي النظيف ، واخلاقي البيضاء ، فانتصبت واقفاً بكل قامتي ، فضربني خشب الدالية ، غير اني لم احس بشيء ، وامسكت بكتفيـــك ، ورفعتك بكل قواي ، ووضعتك امامي وجهاً لوجه . وبعد فترة عذبة من الصمت الثرثار سألتك « ما رأيك بهذا ؟ » . وكان جيلاً منك ، وعزاء لي ان اجبت « شيء طبيعي » . عيناي هما اللتان سألتاك ، ووجهـــك هو الذي اصاب ، هذا ان كنت لا تزالين باقية على ذكرى تلك اللحظة الطويلة ...

ومرت الايام ، وتناسينا تلك القبلة الفاجرة ، وعادت حياتنا الى مجراها الطبيعي ومستواها الاول . وبدأت تتصرفين كما يجب ان تتصرفي ، وبلغ من ثقتك بي ان تظاهرت باعتناق كل افكاري السياسية والاجتماعية ، وانصرفت الى مطالعة ما اطلب منك مطالعته من الكتب القومية حين اتيتني مرة فرحة كالطفل « الآن بدأت اشعر بقيمتي ، انني لم اخلق عبثاً ، ان امـــة بكاملها ترزح تحت نير الفقر والجهل والمرض والاستعمار بحاجة الي . لن اكون تافهة بعد اليوم وسأناضل ما وسعني النضال في هذه الحياة » .

الى هذا الحد وصلت معك ، وفي هذا المسوى تركتك . تركتك وسافرت لتأدية « خدمة العلم » . كنت آسفة لفراقي ، ولكني شجعتك في ان الوطن بحاجة الينا جميعاً ، ان التباعد في سبيل عروبتنا هو تلاق من نوع عميق . وصارحتك لاول مرة انني متزوج ، وكذباً قلت لك انني احب زوجتي ، وطلبت منك ان تبحثي عن فتى خلوق « تناضلين معه في هذه الحياة » . ولم تكن دموعك بالشيء الجديد ، فسحتها كالعادة بمنديلي الذي هو منك ، وطبعت على يدك قبلتي الاخيرة ومضيت ...

واليوم – اليوم بالذات – بلغني عنك كل شيء اينها الحمقاء ، ايتها المرتدة . ولهذا لم ار فيك ما يشجعني على التلفظ باسمك ، ولا حتى على رسمه احرفاً صماء على هذه الورقة اليابسة . وانني اذ اضع بين يديك خلاصة عامين من الزمن ، فليس لتجتريها كشاة جائعة – كما قلت لك – ولكن لتثقي من انك لابد راجعة الى نفسك .

وان الكلمة الاخيرة والوحيدة التي سأضيفها هذا العام ، لما قد قلتـــه لك في العامين الماضيين ، هي :

« ايتها الاخت المسكينة والحبيبة معاً ، ان بك اماً عربية اصيلة ، لو شئت لكنتها بحق »

«ايتها الفتاة الطيبة اللاواعية ، في نفسك فتشي عن ينابيع الخير والمسرة .. »

المخلص

...

درعا

م. الزعبي